## إسلامه

كان إسلام خالد ضربا من التسليم.

كان ضربا من التسليم بمعناه "العسكرى" المصطلح عليه فى عرف القادة ورجال الكفاح

لأنه أسلم أو سلم تسليم القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر، والنصر والهزيمة، الخبير بموضع الأقدام وموضع الإحجام، المقاتل والقتال شجاعة، المسالم والسلم ضرورة لا محيص عنها[1].

ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل[2] ولا الجازع المنخذل. بل لعله من نفسه غاية الثقة بالقدرة، وحمادى[3] اليقين بالخبرة، يوم أسلم وسلم إلى معسكر الدين الجديد. كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه أنه لن يغلبه إلا الله، وكأنه كان يقول فى قرارة ضميره: أيهزمنى أحدا وليس له مدد من النبوة؟ أيعلو سيف على سيفى وليس له سر من السماء؟..

فبلغ نهاية الإيمان يوم بلغ بداية الإيمان بالله

وقد كان على ذويه فى بنى مخزوم أن يحاربوا حربهم إلى نهايتها لأن الصراع بين الجاهلية والإسلام لم يكن إلا صراعا لهم قبل كل جاهلى وكل قرشى وكل عربى على التعميم.

وكان معسكرهم أولى المعسكرات أن يصد إلى موقف الحسم من النضال بين الفريقين، لأن بلاءه بإدبار[4] الجاهلية أكبر من كل بلاء، وموقفه أمام الإسلام موقف من ينافح عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه وأجداد، وعزة "النظام" الاجتماعى كله كما قررته الجاهلية بعد أحقاب، لأنه النظام الذى به يقومون وبهم يقوم.

---

(١) لا محيص عنها: لا مفر منها.

(٢) الوكل: الجبان العاجز.

(٣) الحمادى: الغاية وملغ الجهد.

(٤) بإدبار الجاهلية: يعنى (بزوالها).

وقد أبلى أبوه فى هذا الصراع قصارى ما فى وسعه من بلاء، وهو شرح يطول، وتفصيل تضيق به الفصول، ولكن إشارة واحدة فيه تغنى عن بيان طويل، وصفحة موجزة من صفحاته تعنى هم الأطناب فى القيل والقال..

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها فى حرب الإسلام أن نقول إنه قدر هان عليه فى هذا السبيل أن يبذل العزيزين: الولد والمال.

ففى بداية الدعوة المحمدية سعى وقومه إلى عم النبى أبى طالب ليسلمهم محمدا أو يتخلى عنه، وله بديلا منه عمارة بن الوليد[1].. وقد وصفوه بأنه أنهد[2] الفتيان وأشعرهم وأجملهم فى قريش.

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى إلى النبى فيمن سعى إليه من سراة[3] قريش لشاطروه أموالهم ويسكت عن أربابهم وعباداتهم، وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة الأحزاب: "ولا تطع الكافرين والمنافقين"..

وبمقياس هذا البذل السخى فى سبيل الله تقاس كراهة الرجل للدين الجديد، وهى كراهة الهرم التى تبقى إلى الموت، لأنه فوجئ الإسلام وهو يقارب الثمانين، وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد نيف على الخامسة والتسعين

وكان خالدا فتى ناشئا يوم ظهر النبى بالدعوة الجديدة، فنفر منها كما نفر قومه أجمعون، وزاد على النفرة لهبا من حمية صباه[4]، وتحفزا فتيا يسبق أباه.

---

(١) وله.. الخ: أى: (وله عمارة بن الوليد بديلا منه)

(٢) أنهد الفتيان: أشدهم وأقواهم.

(٣) سراة: جمع سرى، وهو الكريم ذى المروءة، والمقصود (عظماؤهم).

(٤) حمية الصبا: حماسة الشباب.

فما هو إلا أن بلغ مبلغ الزعامة فى القتال حتى تجرد لها بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة، ولم تنقص سنتان على موت أبيه حتى كان قائد الميمنة فى وقعة أحد المشهورة، وتولى الهجمة التى مالت بكفة النصر من جانب المسلمين إلى جانب المشركين.

وذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام أقام الرماة من وراء جيشه وقال لهم: "قوموا على مصافكم[1] هذه فاحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا". فلما ولى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتنمين، خالفت كثر الرماة وصاية النبى وتصايحوا بينهم: "ما مقامنا ها هنا وقد انهزم المشركون" فكانت هى الغيرة التى اهتبلها[2] خالد، ولم تذهله عنها الهزيمة المطبقة بقومه، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبى جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء جيش المسلمين، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير، وانتقضت[3] صفوف المسلمين واستدارت رحاهم[4]، واختلطوا فصاروا يقتتلون على غير شعار، ويضرب بعضهم بعضا من العجلة والدهش، وشاع أن عليه الصلاة والسلام قتل فى المعركة، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأنصار وأرجف المرجفون[5] بكبار الصحابة حتى ظن أبو سفيان أن أبا بكر وعمر من القتلى، وصاح بين الصفوف: "يوم بيوم بدر والحرب سجال"[6].

واشترط خالد فى وقعة أخرى هى وقعة الأحزاب، أو الخندق، فكانت هى أيضا من أهول الغزوات على المسلمين، وأوشكت أن تحيق بهم دوائرها

---

(١) المصاف: جمع مصف (بفتح الميم وتشديد الفاء) وهو موقف الحرب.

(٢) الغزة التى اهتبلها الغفلة التى انتهز فرصتها. (٣) انتقضت: تشتت.

(٤) الرحى: الطاحون، ويقال "دارت عليه وحمى الحرب" إذا انهزم، وقوله (استدارت رحاهم) أى انقلبت الآية فهزموا بعد أن كانوا منتصرين.

(٥) أرجفوا بهم: اختلفوا الأقوال الكاذبة، ومنه قوله تعالى (والمرجفون فى المدينة).

(٦) الحرب سجال: متداولة بين المتحاربين، يوم لهؤلاء، ويوم لأولئك.

لولا يقظة على بن أبى طالب، ووقعية بعض الدهاة بين أحزاب قريش، وهبوب الريح التى عصفت ببيوتهم وقدورهم وزادتهم يأسًا من اقتحام الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة، وفى هذه الغزوة يقول القرآن الكريم: "يأيها الذين آمنوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ جاء جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً. . . ".

وقد كان خالد فى هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيا يقحم منه الخيل فأعياه، وفشل عمرو بن ود[1] حين حاول العبور من إحدى نواحيه. فلما حبطت[2] حملة عمرو وقتله على بن أبى طالب بات المشتركون ليلتهم يقسمون كتائبهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمه مع الصباح، فكان خالد هو الموكل[3] بالنبى عليه الصلاة والسلام فى كتيبة غليظة من خيل قريش والأحزاب، فاندفع يقاتل سحابة النهار وهويا من الليل[4]، إلى أن تحاجز الفريقان، ورجع المشركون، وانصرف المسلمون إلى قبة النبى، فارتد خالد بعد هنيهة يطلب الغرة، وكان يظفر بها لولا حرس من المسلمين بقيادة أسيد بن حضير تنبه له وفوت عليه غرضه. ثم انقطع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف، وكان آخر من ترك الحومة بعد يأس الأحزاب من عبور الخندق ودخول المدينة، فلبث هو وعمرو بن العاص على ساقة الجيش[5] فى مائتى فارس للجيش كله، مخافة أن يعتقبه المسلمون

وتصدى خالد مرة أخرى للنبى عليه الصلاة والسلام فى سنة الحد يبيه وهو طريقة إلى مكة. وكان النبى قد خرج إليها معتمراً[6] فى نحو ألف

(١) فى سيرة ابن هشام أنه (عمرو بن عبد ودبن قيس أخو بنى عامر بن لؤى).

(٢) حبطت: اخفقت. (٣) الموكل: الذى يتولى أمره.

(٤) هوى من الليل: هزيع أو قسم من الليل. (٥) ساقة الجيش: مؤخرة.

(٦) معتمرا: يريد العمرة، وهى زيارة تسمى الحج الأصغر.

وخمسمائة من المسلمين لا يحملون سلاحا غير السيوف فى القرب، فأوجس المشركون خفية أن يكون قدومه إلى البيت الحرام للقتال لا للعمرة، وندبوا خالدا فى مائتى فارس للقائه قبل بلوغ مكة. فدنا خالد حتى نظر إلى أصحاب رسول الله، وأمر رسول الله عباد بن بشر فتقدم فى خيله وأقام بإزائه وصف من ورائهم رجاله، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف، هم خالد أن يغير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس المغيظ على مكانته وعروض دنياه[1] فعلت هذا كفة الفارس النبيل على كفة الرئيس الموتور، وقال خالد يصف ذلك بعد إسلامه: "هممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا، وكان فيه خيرة، فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منى موقعا، وقلت: الرجل ممنوع".

إلا أنه مع هذا بقى على لده[2] فى خصومة الإسلام ومعاندة نفسه دون الإصغاء له والنظر إليه. فلما صالح النبى قريشا ودخل مكة فى عمرة القضاء[3] كره خالد أن يشهد دخوله، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا، وهو معفى النظر من رؤية شىء لا يستحبه ولا يخلى بينه وبين حربه

كذلك كانت كراهة خالد للإسلام بعد كراهة أبيه

ومن وثباته هذه، ولجاجه ذاك، يغلب على الظن أن كراهته كانت من نوع تلك الكراهة التى هى أقرب إلى المبارزة المناجزة منها إلى المقت والضغينة. لأنها لا تعنى صاحبها بالعبد من المبارزة اللازم لإتمام الصراع وإذكاء حرارته وامتحان قدرة النفس عليه.

---

(١) عروض دنياه: جمع (عرض) بفتحتين، وعرض الدنيا ما كان من مال قل أو أكثر.

(٢) اللدد: شدة الخصومة.

(٣) سميت كذلك لأنها كانت بدلا من العمرة التى صدته عنها من قبل.

وهذه الحرارة حركة جياشة فى النفس، وليست كذلك الموات الذى تنقبض عليه النفس فى الشيخوخة الفانية، ولا كذلك الضغن الذى يتغذى بقيحه المخزون فى طبيعة منغولة[1] معدومة الخير والنجدة..

مثل هذه الحركة الجياشة فى النفس الحية الفتية كالسيل المتدفع الآتى[2] فى واديه المحيط بجانبيه، يظل متدفعا أتيا ما بقى فى الوادى، وما انهمر عليه الغيث من ضفتيه. ولكنه إلى أمد لا محالة، لأنه سينتهى إلى مفترق الوادى فلا يجيش ولا يتدفع، وسيقصر عنه الغيث فلا يربو ولا يترع[3] وسيكون طريقه مع الوادى المفترق غير طريقه مع الوادى المحصور

والوادى هنا قد افترق فى مجراه شعبة بعد شعبة منذ عهد غير قريب وإن لم ينته بعد إلى غاية المفترق فى الأرض البراح[4].

افترق الوادى قليلا حين انقسم بيت المغيرة بين معسكر الجاهلية ومعسكر الإسلام، وأصبح فى معسكر الإسلام أخوان حبيبان إلى خالد، وهما الوليد وهشام

وافترق يوم أصغه إلى القرآن فحدث آل بيته عنه ذلك الحديث الذى أرابهم وأشجاهم[5]، فحسبوه قد صبا عن دينه وسألوه عن نبأ محمد فأوشك أن يقع فى قلبه أنه وحى السماء لو لم ينطق لسانه بأنه السحر الذى يفرق بين الرجال وزوجه الوالد وبنيه، والسيد ومولاه!..

وافترق قليلا يوم شهد خالد سكينة المسلمين فى طريق الحديبية وهم

---

(١) طبيعة منغولة: مشحونة بالحقد والضغينة، والنغل: الفساد

(٢) السيل الآتى: الذى يأتى من مكان بعيد لا يدرك.

(٣) يربو: يريد ويفيض: ويترع: يمتلئ.

(٤) البراح: المكان المكشوف لا يستره شجر أو غيره.

(٥) آرابهم: بعث الشك والريبة فيهم، وأشجاهم: غمهم وأحزنهم.

قائمون للصلاة، وهجس فى خاطره أن يغير عليهم فصدته عنهم رهبة الصلاة ونخوة الفارس المحجم عن الغدر والغيلة[1]، وسرى فى روعه[2] أن لمحمد لسرا وأن الرجل لممنوع

وكان لتلك الحركة الجياشة مدد من تحريك الكتائب وتجريد الطلائع وإقامة الأرصاد[3] والتقاء الجموع واتفاق الكلمة بين المشركين على الحرب والعداء، فإذا هم يتبلبلون مختلفين بعد صلح الحديبية، وإذا بصلح الحديبية يلفى السلاح من الأيدى سنين طوالا لا لقاء فيها ولا نزال، ولا سورة من غضب، ولا جذوة من غيظ مثار[4].

ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم على العقول، وتهيأ الجو للسؤال: فيم هذا العداء والنضال؟ أمن أجل الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج إليها؟ أم من أجل العصبية القومية وشرف محمد شرف العرب أجمعين؟.. أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزيز كرامته ويعرف للحسيب قدره؟..

ومن أين لمحمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين؟

ومن أين له تلك المهابة التى ترد عنه الأعين والأيدى من قريب؟

ومن أين له ذلك العون الذى يدكه وقد أحاطت به الهزيمة من كل فج فإذا هو ناصل[5] منها، وإذا هو الطارد الظافر وقد خيل إليهم أنه الطريد المخذول؟..

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع؟ ومن أين للنبى بينهم ذلك السلطان الصادع[6] والصوت المسموع؟

---

(١) الغيلة: بعث الاغتيال. و(قتله غيلة) أى خدمة ثم قتله غدار.

(٢) الروع: (يضم الراء) القلب والعقل. (٣) الأرصاد: الرقباء والحراس.

(٤) سورة الغضب: وثوبة وهياجه، والجذوة: جمرة النار

(٥) ناصل منها: خارج منها. (٦) السلطان الصادع: القوى القاطع.

لقد رآهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود فعاد إلى قومه يقول: "والله يا معشر قريش!.. جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى عظمته، فما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد بين أصحابه، ولقد رأيت قوما ولا يستلمونه[1] بشيء أبدا، فانظروا رأيكم، فإنه عرض عليكم رشدا، فاقبلوا ما عرض عليكم فإنى ناصح، مع أنى أخاف ألا تنصروا عليه".

ولقد رأوه بعد ذلك فى عمرة القضاء لا يتوضأ وضوءاً[2] إلا كاد المسلمون يقتتلون عليه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، ولا يحدون[3] النظر إليه، ورأوهم فى نظامهم ومودتهم! وصدق إيمانهم وخالص نياتهم، فأكبروهم وعز عليهم أن يصغروهم أو يتمادوا فى الزراية بهم[4] والإعراض عنهم، وانقلبوا إلى أنفسهم فإذا هم مرتابون فى الغد متدابرون فى المقصد[5]، منهزمون وهم الأكثرون، محجمون وهم المتربصون. فحانت الساعة لوزن الأمور ومراجعة الحاضر والمصير، وفرضت هذه المراجعة فرضا على كل ذى بصر بالقيادة فى معارك النضال أين تفشل وأين يتسع لها المجال، فإذا بالرجلين المفطورين على توجيه الوجوه قد انتهيا إلى رأى فى مصير المعركة بين الجاهلية والإسلام فى ساعة واحدة، وعلما أين يقف الدينان المتناجزان[6] من حق النصر وعوارض الهزيمة، وهما عبقريًا قريش فى أصول القيادة على تباين السن والمذاهب والمزاج: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

وفى تلك الآونة التى يشتد فيها الجذب والدفع بين الإنسان وقرارة ضميره وتجب الموازنة وجوبا على كل ضليع بها قادر عليها، لم يترك خالد لنفسه، ولم يلبث أن جاءته الدعوة التى تنصره على عناده، وتخرجه من

---

(١) لا يسلمونه: لا يفرطون فيه. (٢) الوضوء: بفتح الواو) الماء الذى يتوضأ به.

(٣) يحدون النظر إليه: ينظرون إليه بحدة. (٤) الزراية بهم: امتهانهم وعيبهم.

(٥) متدابرون فى المقصد: متقاطعون مختلفون. (٦) المتناجران: المتصارعان.

تردده، وتستدعى منه البيت العاجل بجوابه، وتمسح الغضاضة التى لعلها كانت تثنيه عن تلبية ضميره.

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد، ولا غنى فيها عن جواب..

قال أخوه الوليد: "... أما بعد.. فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعلقك عقلك[1]، ومثل الإسلام يجهله أحد؟!"

ثم مضى يقول: "سألنى رسول الله ﷺ فقال، أين خالد؟ فقلت: يأتى الله به؟ فقال: ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته[2] وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له، ولقد مناه على غيره..

فاستدرك يا أخى ما فاتك منه، فقد فاتنك مواطن صالحة".

تلك كانت هى الدعوة التى جاءت فى أوانها.

وكان إسلام خالد هو الجواب.

فهى مراحله الطبيعية التى لا بد له من عبورها بين الجاهلية والإسلام: لم يكن طبيعيا أن يلبى أول دعوة وهو هو فى قريش صاحب معلقها المنبع..

ولم يكن طبيعيا أن يلبى الدعوة فى وطيس الحرب ومحتدم العداء ولم يكن طبيعيا أن يسكن هنيهة إلى الموازنة وقد انقسم بيته ثم انقسمت نفسه ثم جاءته الدعوة الكريمة فى حينها فلا يكون الإسلام جوابه المنظور..

فهو قد انتقل من الإصرار، إلى القتال، إلى الموادعة، إلى الموازنة، إلى الترجيح، إلى الإجابة، ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هى مكان العجب، وهى الأمر المخالف لطبائع الأمور.

---

(١) وعقلك عقلك: أى ولك ذى العقل نعرفه فيك.

(٢) نكايته: (نكى فى العدو) أى قتل فيهم وجرح.

وقد أسلفنا أن الإسلام كان فى أمر خـالد ضربا من التسليم، فنعيد هنا أنه تسليم القائـد فى معركة نفـسية، وليس بتـسليم القائد فى مـعركة حسـية وكفى، ولهذا عناه[1] أن يستغفر له النبى ربه عن مـاضيه، ولم يكن قصاراه أن يرحب به النبى ويسلكه بين صحابته ومـريديه. فقال: يا رسول الله. قدر رأيت مـا كنت أشـهد من تلك المواطن عـليك معـاندا عن الحق، فـادع الله يغفرها لى.

فأجابه النبى عليه الصلاة والسلام: إن الإسلام يجب ما كان قبله[2].

فعاد خالد يؤكد رجاء ويقول: يا رسول الله، وعلى ذلك!

فدعا الـنبى ربه: اللهم اغفر لخالد بن الوليـد كل ما أوضع[3] فيه من صد عن سبيلك!..

فرضى خالد واسترح..

ولا يكون هذا إلا تسليم الـقلب نفض عنه الكفـر، وليس تسليم اليـد رمت منها السلاح..

وأحرى بنا أن نرجع إلى كلام خالد لبيـان تاريخ إسلامه وسبب اهتدائه وتلخص الأحاديث التى كاشف بها خلصاءه قبل لحاقه بالنبى فى المدينة ليسلم على يديه، فإنه أجمل ذلك كله إجمالا يـصفح عن تلك الأطوار النفسية التى ساورته وإن لم يقـصد إلى الإفصـاح عنها، وعل صدورها منه على البـديهة أبين لها وأقرب إلى توكيد من الشرح المقصود..

قال: "لما أراد الله بى من الخـير ما أراد قـذف فى قلبى حب الإسلام، وحضرنى رشـدى وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على مـحمد، فليس

---

(١) عناه أن يستغفر له النبى: كان يعنيه ويهمه أن يستغفر له النبى.

(٢) يجب ما قبله، يقطعه، فلا يكون له أثر.

(٣) أوضع: أوضع فلان فى الشعر: أسرع فيه.

موطن أشهد إلا وأنصرف وإنى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء، وأن محمدًا سيظهر[1]. فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية وخرجت فى خيل المشركين فلقيت رسول الله ﷺ فى أصحابه بعسفان[2]، فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر إماما، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزل لنا. وكان فيه خيرة. فأطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منى موقعا وقلت: الرجل ممنوع وافترقنا، وعدل على سنن خيلنا[3]، فأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالراح[4] قلت فى نفسى: أى شىء بقى؟ أين المذاهب؟ إلى النجاشى.؟ فقد اتبع محمدا وأصحابه آمنون عنده. فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية. أفأقيم فى عجم أو أقيم فى دارى فيمن بقى؟..

"وبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فى عمرة القضاء، وتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخى الوليد قد دخل مع النبى ﷺ فى تلك العمرة، فطلبنى فلم يجدنى. فكتب إلى كتابا فإذا فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك، ومثل الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألنى رسول الله ﷺ فقال: أين خالد؟ فقلت يأتى الله به. فقال. ما مثل خالد يجهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له، ولقد مناه على غيره، فاستدرك يا أخى ما فاتك منه، فقد فاتك مواطن صالحة"

"فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج، وزادنى رغبة فى الإسلام، وسرتنى مقالة رسول الله ﷺ، ورأيت فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة جدبة،

---

(١) سيظهر: سينتصر.

(٢) عسفان: موضع بين مكة والمدينة على بعد مرحلتين من مكة.

(٣) سنن الخيل: طريقها. (٤) الراح: جمع راحة وهى الكف.

فخرجت إلى بلد أخضر واسع. فقلت: إن هذه الرؤيا حق! فلما قدمت المدينة قلت لأذكرتها لأبى بكر، فذكرتها فقال: هو مخرجك الذى هداك للإسلام، والضيق الذى كنت فيه الشرك. فلما أجمعت[1] الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى محمد؟ فلقيت صفوان بن أمية: أما ترى يا أبا وهب؟ أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأس[2]، وقد ظهر محمد على العرب والعجم. فلو قدمنا عليه فاتبعناه؟ فإن شرف محمد شرف لنا، فأبى على أشد الإبل، وقال: لو لم يبق غيرى من قريش ما تبعته أبدا، فافترقنا، وقلت: هذا رجل موتور يطلب وترا[3]، قتل أبوه وأخوه يبدر - ولقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لى مثل ما قال صفوان.. فقلت له: فاطو[4] ما ذكرت لك.. وخرجت إلى منزلى فأمرت براحلتى تخرج إلى أن ألقى عثمان بن أبى طلحة، وهو صديق لى أذكر له ما أريد. ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما على وأنا راحل من ساعتى[5]؟ فذكرت له ما صار الأمر إليه، وقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب فى حجر لو صب عليه ذنوب[6] من ماء وخرج، وقلت له نحواً مما قلله لصاحبيه، فأسرع الإجابة.. وأدلجنا بسحرة[7] فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج - على ثمانية أميال من مكة، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال مرحبا بالقوم قلنا: وبك: أين سيركم؟ قلنا: ما أخرجك ؟ قال: فما الذى أخرجكم؟ قلنا الدخول فى الإسلام واتباع محمد، قال: وذاك الذى أقدمنى، فاصطحبنا جميعا حتى

---

(١) أجمعت الخروج: عزمن عليه. (٢) أكلة رأس: كناية عن قلة العدد.

(٣) الوتر: (بكسر الراء) الثأر، والموتور: الحاقد الذى يطلب ثأرا.

(٤) اطو ما ذكرت: أخفه ولا تعلنه. (٥) من ساعتى: الآن.

(٦) ذنوب: الدلو المملوءة بالماء.

(٧) السحرة: السحر، وهو قبيل الصبح، والادلاج: السير فى الليل.

قدمنا المدينة، فأنخنا بظاهر الحرة[1] ركائبنا، وأخبر بنا رسول الله ﷺ فسر بنا. فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقينى أخى فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ أخبر بقدومك فسر بقدومك وهو ينتظركم، فأسرعت المشى، فطلعت فما زال يبتسم إلى حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد على السلام بوجه طلق، فقلت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال: الحمد لله الذى هداك. وقد كنت أرى لك عقلا ورجوت أن لا يسلمك إلا الخير"..

إلى أن قال: "وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ، وكان قدومنا فى شهر صغر من سنة ثمان، فو الله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بى أحدا من أصحابه فيما حزبه[2]".

فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الخالجة[3] الأولى التى حركت قلب خالد إلى الإيمان بالدين الجديد، ونحسب أنها قد خالجته يوم التقائه بالمسلمين فى طريقهم إلى مكة قبيل صلح الحديبية.. يوم درته سكينة الصلاة عن جموع المسلمين وهم مسالمون قانتون إلى جوار البيت الحرام، ويوم بدا له أن هذا البيت العتيق غير خاسر شيئا بدعوة محمد وغلبة بأصحابه على البلد الأمين، ويوم تراءى العنت[4] من قريش أن يذودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آبائه وأجداده، ويفسحوا طريقها للوافدين من حمير كم قال الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش.

فمنذ تلك الساعة تباعد ما بين خالد وبين الشرك، وتقارب ما بينه وبين الإسلام، وطفق يتباعد من هناك ويتقارب من هنا حتى كانت مبايعته النبى على ما تقدم قبل فتح مكة بشهور.

---

(١) الحرة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار.

(٢) فيما حزبه: فيما أصابه من أمر.

(٣) الخالجة: الفكرة تخطر بالقلب.

(٤) العنت: التشديد وطلب المشقة.

وفى تحقيق هذا التاريخ - تاريخ إسلامه - خلاف غير قليل، ولكن التاريخ الذى جاء فى سرده المنسوب إليه أرجح التواريخ جميعا لأسباب كثيرة، ليس بأهونها ولا أوهنها السبب النفسانى الذى يقترن بغيره. فإن الوقت المشار إليه آنفا لهو أشبه الأوقات أن يتفق فيه قائد الحرب وقائد السياسة على انتهاء الجولة بين قريش والإسلام. ولن نجد وقتا هو أولى باتفاق القائدين على اختياره للتسليم من ذلك الوقت الذى تواردت فيه الخواطر بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.. وبعده قضى الأمر ولم يبق لمكة إلا أن تفتح أبوابها طائعة لمن هجرته وهجرها تلك السنوات الثمانى..

وقد علم النبى عليه الصلاة والسلام جليلة[1] الأمر منذ قدم إليه الرفاق الثلاثة، فقال لصحبه: رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها، وحق للمسلمين أن يحسبوا منذ تلك الساعة أن أولئك الرفاق الأفذاذ قد جاءوهم بمقاليد الكعبة ومسالك البلد الأمين..

فالواقع أن مكة قد آنت[2] بالفتح منذ فارقها خالد وعمرو وعثمان بن طلحة، فأصبحت "المدينة المفتوحة" التى نعرفها فى اصطلاح هذه الأيام، وأصبحت قضية مغلقيها فى وجه الدين الجديد قضية عبث وحبوط.

ويخطئ الكاتبون الذين يزعمون أنها فتحت بعد شهور لأنها أخذت على غرة وزحف عليها جيش المسلمين فى عشرة آلاف وأهلها معجلون[3] عن الأهبة والدفاع..

فإن النبى عليه الصلاة والسلام إنما زحف عليها لأن قريشا غدرت بعدها، وسطت على حلفائه من خزاعة. ثم أشفقت القصاص[4] فأوفدت أبا

---

(١) جلبة الأم: حققته، والجلية: الخبر اليقين.

(٢) آذنت بالفتح: أعلمت: كأنما ظهرت بوادن الفتح واضحة.

(٣) معجلون: يعنى: مأخوذ على غرة فهم غافلون.

(٤) أشفقت من القصاص: خافت من الانتقام.

سفيان إلى النبى يستأمنه[1] ويسأله مد العهد الذى أبرم بينهم فى صلح الحديبية فأبى النبى ولم يجبنه، وأحسن المشركون منذ اللحظة الأولى أن المسلمين زاحفون عليهم لا محالة، فلو أن قضية الشرك بقيت بقية من عزم لاستعدوا قبل السطو بخزاعة أو بعده على الأثر وأراحوا أنفسهم من الوساطة فى التأجيل والمراوغة، ولكنه التسليم الذى بدأ بإسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقت إلى أجله المعلوم.

فلما جاءها المسلمون دخلوها آمنين على كثرة من بها من المشركين، وتقدم النبى صلوات الله عليه فى كتيبته الخضراء، وتقدم سعد بن عبادة والزبير بن العوام وخالد بن الوليد إلى أبوابها فدخلوها كل من الباب الذى وكل إليه، ونهى النبى أصحابه عن القتال، فلم يحدث قط قتال إلا من صوب[2] خالد ابن الوليد، لأن صفوان بن أمية وسهيل بن عمر وعكرمة ابن أبى جهل رصدوا[3] للباب الذى وصل منه وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل، وشهروا عليه السلاح، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم قريش وأقلهم من هذيل، وولى السادة والأتباع بعد ذلك فى هزيمة نكراء.

أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير؟

خالد دون غيره تصادفه جنود رفقائه بالأمس فى جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم وقد كانوا معا يرمون المسلمين من قوس واحدة! إنه حارب فى صفوف الإسلام عرب الجزيرة العربية وعرب العراق والشام، وحارب فى صفوف الإسلام جيوش الفرس والروم، وحارب فى صفوف الإسلام كل من برز لتلك الصفوف، فما بال الجاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين

---

(١) يستأمنه: يطلب الأمان.

(٢) صوب: ناحية.

(٣) وصدوا: راقبوا.

ولا ينصر المسلمين عليها؟ وأين يلتقى بهـا إن فاته لقائها فى ذلك اليوم؟ لقد لقيهـا إذن فى ساعتها التى لا سـاعة بعدها، وقال النبى حين سـمع بضربته: ألم أته عن القتال؟ قالوا: إنه خالد قوتل فقـاتل! فقال: "قضاء الله خير.." ثم قال: "لا تغزى[1] قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة..."

وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون.

***

(١) لا تغزى: لا: نافية، ولذلك بعدها مرفوع.